

خطيئة آدم وفكرة الخلاص في الكتب السماوية بين الايديولوجيا الدينية والحقيقة التاريخية

م.د. شيماء بدر عبدالله السراي
جامعة واسط / كلية التربية للعلوم الإنسانية

ملخص البحث

تعد مسألة (خطيئة آدم) الواردة في الكتب السماوية الثلاث التوراة، الإنجيل، القرآن الكريم، من المسائل المهمة التي تناولتها الأقلام كثيراً، واختلفت تبعاً لذلك عقائد المعتمدين بها في الديانات الثلاث.

كما إن فكرة الخلاص التي تجذرت في هذه الديانات كلٌ بحسب مفاهيمه الدينية ومعتقداته التي آمن بها، سواء كانت ايديولوجيا دينية حقيقية، أم إنها من متبنيات الفكر الديني عند المفكرين اللاهوتيين.

وبحثنا هذا يسلط الضوء على تلك الخطيئة، وفكرة الخلاص منها في الكتب السماوية الثلاث (التوراة والإنجيل والقرآن)، وأهم ما جاء فيها من الاختلاف سواء كان في نقلها أو في ما أصبحت تمثل فيه اعتقاداً راسخاً بوجودها الأبدي وسريانها في عموم البشرية، وأهم ما جاءت به تلك الايديولوجيات من عملية تحرير البشرية من الخطيئة الأولى، وفكرة الخلاص لديها، فكان عنواناً لدراستنا هذه وقد جعلناها بين واقعين: بين الايديولوجيا الدينية والحقيقة التاريخية .

الكلمات المفتاحية: التوراة ، الإنجيل ، القرآن الكريم ، الخطيئة ، الخلاص

Abstract

The question of (Adam's sin) contained in the three heavenly books of the Torah, Alanil, the Koran, is one of the important issues dealt with by the pens a lot, and accordingly differed doctrines believed in the three religions. The idea of salvation, which was warned in these religions, each according to his religious concepts and beliefs that he believed in, whether it is a true religious ideology, or it is one of the adopters of religious thought among theological thinkers. Our research sheds light on that sin, the idea of salvation from it in the three heavenly books (the Torah, the Bible and the

Qur'an), and the most important difference in its transmission, whether in its transmission or in what has become a firm belief in its eternal existence and its entry into the whole of humanity, These ideologies from the process of liberating mankind from the first sin, and the idea of salvation, have been the title of our study and have made it between two realities: between religious ideology and historical truth.

Keywords : (Torah) ، (Gospel) ، (Holy Quran) ، (sin) ، (salvation)

المقدمة

من أكثر المسائل الدينية خلافاً بين الأديان السماوية الثلاث اليهودية والمسيحية والإسلام هي مسألة الخطيئة الأولى، أو خطيئة آدم، وفكرة الخلاص من هذه الخطيئة، فقد قُدمت هذه القصة في الكتب السماوية برؤى مختلفة تبعاً للنظرة العقائدية التي تبنتها تلك الأيديولوجيات الدينية. فالمسيحية ترى أن البشرية كلها قد تأثرت بتلك الخطيئة، التي أدخلت الموت إلى العالم. إذ إنها بحسب نصوص التوراة والإنجيل، قد توارثها الأبناء عن الآباء. وهي المحور الأساس الذي دارت حوله نسبة العلاقة بين الله والإنسان.

هذه العلاقة التي شابها الكثير من المفارقات، وحملت معها تناقضات عديدة، بسبب اضطراب النصوص في التوراة والإنجيل، التي زادها تناقضاً عدم قدرة الشراح على إعطاء فهم هذه النصوص المرتبكة، ومحاولتهم إيجاد تبريرات منطقية لهذا التناقض، فزاد ذلك الارتباك أكثر، كانوا مدفوعين برغبة المحافظة على أيديولوجية العقائد التي قامت عليها دياناتهم، والتي هي بعيدة عن الفكر الديني الحقيقي الذي شرعته السماء. ولعل أبرز ما نتج عن هذه الأيديولوجيات هو فكرة العقاب الأبدي، وفكرة الخلاص عند المسيحيين تحديداً، فهاتين الفكرتين ليس لهما وجود في اليهودية والإسلام، أو بعبارة أخرى تختلف أيديولوجياً عنها.

فكرة الخلاص عند المسيحية تتلخص بالإيمان بأن المسيح افتدى نفسه من أجل تخليص البشرية من خطيئتها الأولى، خطيئة أبيهم آدم، لكنها لا تعني رفعها مباشرة، وإنما تفتح باب الخلاص لمن يرغب. والرغبة يحددها هنا الإيمان بالله وعبادته والإيمان بفداء المسيح ورسالته، فعلى الإنسان أن يؤمن بالمسيح مخلصاً وفادياً، فإنها فكرة الخلاص الأساسية .

ومسألة توريث الخطيئة في الديانتين اليهودية والمسيحية، قابله تجاهل تام في الإسلام. فعلى الرغم من ذكرها في القرآن الكريم في أكثر من موضع، إلا إنه لم يتطرق لفكرة اللعن الأبدي للجنس البشري، ولا لمسألة توريثها للأبناء.

فالإسلام ذكر خطيئة آدم الذي عصا ربّه، كما ذكر العقوبة التي ولكنه لم يذكر مفاعيل خطيئة آدم ابتداء من توريثها للبشرية وما استتبعها من لعنة الله للأرض وربط كل ويلات الإنسان بهذه اللعنة.

قد اعتبر القرآن أن آدم خطاء وكل إنسان خطاء، وأن الله أرسل رسله إلى البشر لتهدئهم إلى صراط مستقيم. فمن اهتدى فاز، ومن لم يهتد خسر.

ما هي الخطيئة

الخطيئة في اللغة: الخطأ والخطاء ضد الصواب، وهو: الذنب، وقيل هو: الذنب على عمد (ابن منظور، ١٤٠٥هـ، ج ١، ص ٦٧).

وعرفها الراغب الأصفهاني بالقول: "الخطيئة والسيئة يتقاربان لكن الخطيئة أكثر ما تقال فيها إنها لا يكون مقصوداً إليه في نفسه، بل يكون القصد سبباً لتولد الفعل منه، والخطيئة هو: القاصد للذنب". (د.ت، ص ١٥٧).

أما في الاصطلاح فقد عرفها الجرجاني بالقول: "هو ما ليس للإنسان فيه قصد، وهو عذر صالح لسقوط حق الله تعالى إذا حصل عن اجتهاد، ويصبح شبهة في العقوبة حتى لا يؤثم الخاطيء، ولا يؤخذ بحد ولا قصاص، ولم يجعل عذراً في حق العباد حتى وجب عليه ضمان العدوان، ووجبت به الدية". (١٩٨٣، ص ٩٩-١٠٠).

وعرفها آخر بأنها: "المعصية بين الانسان وبين الله تعالى". (أبو حبيب، ١٩٨٨، ص ١١٧).

وعرفت كذلك بأنها: التهاون في الشريعة، وارتكاب ما نهى الله عنه. (صليبا، ١٩٨٢، ص ٥٣٥).

وإذا أردنا أن نوضح معنى هذه الخطيئة بصفة عامة، سنرى إن معناها - فيما نحن بصده - لا يعدو المنظور الديني، والخطيئة هي أن تخالف قانون الشريعة الدينية، وأول خطيئة بشرية - حسب الديانات السماوية - هي خطيئة آدم، القرب من الشجرة التي نهاه الله عنها. وفي اصطلاح المسيحيين تعني: "التعدي على شريعة الله وأحكامه، أو عدم الامتثال لشريعة الله، ...، والخطيئة هي التعدي". (عجيبة، ٢٠٠٦، ص ١٧١) أما في التوراة فهي: "كل خطيئة هي ضد الله". (الانبا بشوي، ١٩٦٧، ص ١٣).

الخطيئة والخلاص في التوراة

تبدأ قصة الخطيئة في التوراة بتحذير آدم - بعد أن خلقه الله وأسكنه جنة عدن - من أن يأكل من الشجرة التي نهاه الرب عن الأكل منها: "وَأَوْصَى الرَّبُّ الإِلهُ آدَمَ قَائِلًا: «مِنْ جَمِيعِ شَجَرِ الْجَنَّةِ تَأْكُلُ أَكْلًا،^{١٧} وَأَمَّا شَجَرَةُ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فَلَا تَأْكُلْ مِنْهَا، لِأَنَّكَ يَوْمَ تَأْكُلُ مِنْهَا مَوْتًا تَمُوتُ»". (سفر التكوين: الإصحاح ٢/١٦-١٧).

وتشير التوراة بوضوح إلى إن هذا التحذير كان قبل أن يخلق الله حواء، إذ أشارت إلى خلق حواء في الآيات اللاحقة: "فَأَوْقَعَ الرَّبُّ الإِلهُ سُبَاتًا عَلَى آدَمَ قَنَامًا، فَأَخَذَ وَاحِدَةً مِنْ أَضْلَاعِهِ وَمَلَأَ مَكَانَهَا لَحْمًا.^{١٨} وَبَنَى الرَّبُّ الإِلهُ الضِّلْعَ الَّذِي أَخَذَهَا مِنْ آدَمَ امْرَأَةً وَأَحْضَرَهَا إِلَى آدَمَ.^{١٩} فَقَالَ آدَمُ: «هَذِهِ الْآنَ عَظْمٌ مِنْ عِظَامِي وَلَحْمٌ مِنْ لَحْمِي. هَذِهِ تُدْعَى امْرَأَةً لِأَنَّهَا مِنْ امْرِئٍ أُخِذْتُ»" (سفر التكوين: الإصحاح ٢/٢١-٢٣).

بعد ذلك تروي التوراة قصة إغواء الحية لحواء حتى تأكل من الشجرة التي أمرها الرب أن لا يأكلها منها: "وَكَانَتِ الْحَيَّةُ أَحْيَلُ جَمِيعِ حَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ الَّتِي عَمِلَهَا الرَّبُّ الإِلهُ، فَقَالَتْ لِلْمَرْأَةِ: «أَحَقًّا قَالَ اللهُ لَا تَأْكُلُ مِنْ كُلِّ شَجَرِ الْجَنَّةِ؟» ... 'فَقَالَتِ الْحَيَّةُ لِلْمَرْأَةِ: «لَنْ تَمُوتَا! بَلِ اللهُ عَالِمٌ أَنَّهُ يَوْمَ تَأْكُلَانِ مِنْهُ تَنْفَتِحُ أَعْيُنُكُمَا وَتَكُونَانِ كَاللهِ عَارِفَيْنِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ»... فَأَخَذَتْ مِنْ ثَمَرِهَا وَأَكَلَتْ، وَأَعْطَتْ رَجُلَهَا أَيْضًا مَعَهَا فَأَكَلَ»". (سفر التكوين: الإصحاح ٣/١-٦).

وكنتيجة على مخالفتها لوصية الرب، يتعرض آدم وحواء إلى العقوبة، كما تشير التوراة إلى ذلك بالقول: "فَقَالَ الرَّبُّ الإِلهُ لِلْمَرْأَةِ: «مَا هَذَا الَّذِي فَعَلْتِ؟» فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ: «الْحَيَّةُ غَرَّتْنِي فَأَكَلْتُ».^{٢٠} فَقَالَ الرَّبُّ الإِلهُ لِلْحَيَّةِ: «لِأَنَّكَ فَعَلْتِ هَذَا، مَلْعُونَةٌ أَنْتِ مِنْ جَمِيعِ الْبَهَائِمِ وَمِنْ جَمِيعِ وَحُوشِ الْبَرِّيَّةِ. عَلَى بَطْنِكَ تَسْعِينَ وَتَرَبَابًا تَأْكُلِينَ كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكَ.^{٢١} وَأَضَعُ عِدَاوَةَ بَيْتِكَ وَبَيْنَ الْمَرْأَةِ، وَبَيْنَ نَسْلِكَ وَنَسْلِهَا. هُوَ يَسْحَقُ رَأْسَكَ، وَأَنْتِ تَسْحَقِينَ عَقْبَهُ»". (سفر التكوين: الإصحاح ٣/١٣-١٦).

والملاحظ على نوع العقوبة التي عوقب بها آدم وحواء إنها لم تقتصر عليهما فقط، بل إن العقوبة كانت شاملة لنسلهما أيضاً، أي إنها كانت عقوبة مؤبدة. وهذا يتناقض مع ما ورد في التوراة في مكان آخر، من أن العقوبة لا تشمل إلا مرتكبها فقط، كما يتبين من النص: "لَا يُقْتَلُ الْآبَاءُ عَنِ الْأَوْلَادِ، وَلَا يُقْتَلُ الْأَوْلَادُ عَنِ الْآبَاءِ. كُلُّ إِنْسَانٍ بِخَطِيئَتِهِ يُقْتَلُ". (سفر التثنية: الإصحاح ٣/١٦).

الخطيئة والخلاص في الإنجيل

أما في الإنجيل فلم ترد إشارة إلى قصة خلق آدم أو الخطيئة، إلا أن القديس بولس أشار إلى هذه الخطيئة في رسالته إلى أهل رومية بالقول: "مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَأَنَّما بِإِنْسَانٍ وَاحِدٍ نَخَلَّتِ الْخَطِيئَةُ إِلَى الْعَالَمِ، وَبِالْخَطِيئَةِ الْمَوْتُ، وَهَكَذَا اجْتَاَزَ الْمَوْتُ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ، إِذْ أَخْطَأَ الْجَمِيعُ". (رسالة بولس إلى أهل رومية: الإصحاح ٥/١٢) .

وقد أصبحت هذه الخطيئة عند المسيحيين بمثابة اللعنة التي حلت على البشرية، فركز المسيحيون على مبدأ الخطيئة ويفعلها تمت معاقبة البشر، فكان صلب المسيح تكفيراً لتلك الخطيئة، وهو خلاص للبشرية منها: "لَأَنَّهُ كَمَا فِي آدَمَ يَمُوتُ الْجَمِيعُ، هَكَذَا فِي الْمَسِيحِ سَيُحْيَا الْجَمِيعُ". (رسالة بولس إلى أهل كورنثوس: الإصحاح ١٥/٢١) .

وحتى يستطيع - بولس - أن يربط بين خطيئة آدم وصلب المسيح - كما يزعم المسيحيون - فقد سمّاه بأدم الأخير: "صَارَ آدَمُ، الْإِنْسَانُ الْأَوَّلُ، نَفْسًا حَيَّةً، وَآدَمُ الْأَخِيرُ رُوحًا مُحْيِيًا". (رسالة بولس إلى أهل كورنثوس: الإصحاح ١٥/٤٥) .

وهذه إشارة واضحة على تبني عقيدة خاصة عند المسيحيين باعتبار السيد المسيح هو المخلص للإنسانية من الخطيئة الأولى التي اقترفها الإنسان الأول آدم . وترسيخ هذه الايديولوجية في أذهان الناس لتكون بمثابة عقيدة خالصة للمخلص التي تبناها المسيحيون فيما بعد واعتبروها جزءاً لا يتجزأ من العقيدة المسيحية.

وفي هذا الصدد أشار أحد الباحثين إلى هذه العقيدة المسيحية المكتسبة بالقول: "اعتقد المسيحيون وما زالوا إن خطيئة آدم التي سقط بها هو وحواء هي الأكل من الثمر المنهي عنه، وإن العهد لم يُقطع مع آدم من أجل نفسه، بل من أجل نسله؛ وعليه فالجنس البشري جميعه المتناسل منه تناسلاً طبيعياً قد أخطأ فيه، وسقط معه بخطيئته الأولى، فعقد الله عهد نعمته، لينقذ الجنس البشري من حالة الخطيئة والشقاوة، ويدخلهم إلى الخلاص بواسطة فادٍ لهم، فكان الفادي الوحيد هو (المسيح) الذي هو من الأزل ابن الله ثم صار إنساناً". (الشنطي، ٢٠١٢، ص ٤٠) .

فكرة الخلاص عند المسيحية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالإيمان، فما دام الإنسان أخطأ وحمل أبنائه هذا الذنب، عليه أن يحاول إيجاد طريق للخلاص منه، وفكرة الخلاص الاتصال الوثيق بالمسيح، لأن الله أحب البشرية وأراد لهم التخلص من هذا الذنب، لذا فقد أرسل إليهم (ابنه) يسوع بملئ ارادته أن يتحقق خلاص البشرية من خطيئة آدم، ليكون لأفعاله قدرة خلاصية خاصة، فقدم نفسه فداءً للبشرية. (عوض سمعان، د.ت، ص ٧٩) .

وهذا المعنى أيضاً يؤكد باحث مسيحي آخر الذي يرى إن طريق الخلاص للبشرية هو "طريق الخلاص الإلهي". (أحمد عجيبة، ٢٠٠٦، ص٢٦٩). فيستبعد أن يكون طريق الخلاص هو الكفارة، فهذه الكفارة لا يستطيع الإنسان أن يفعلها - لاعتبارات تخص قدرته النفسية والجسدية - فهي مرهونة بصفات إلهية خاصة لا تتوفر في الإنسان. (أحمد عجيبة، ٢٠٠٦، ص٢٦٩).

الخطيئة والخلاص في القرآن الكريم

تتشابه قصة الخطيئة في القرآن الكريم إلى حد كبير مع ما جاء في التوراة في خطوطها العامة، مع اختلاف في بعض التفاصيل الجزئية. وهذه التفاصيل تأتي من خلال تركيز التوراة على التفاصيل الصغيرة بسبب الصبغة التاريخية التي تصطبغ بها في غالب مواضعها. بينما نلاحظ إن القرآن الكريم لا يهتم بهذه التفاصيل، وإنما يركز على العبرة والعظة حين ترد فيه قصة ما، أو يحكي عن موضوع معين.

وفي قصة الخطيئة نلاحظ إن القرآن الكريم أشار إلى ذلك بصورة مختصرة بعيدة عن التفاصيل، قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾. (البقرة: الآيات ٣٥-٣٦).

ومع اختلاف العنصر الرئيس في الإغواء وهو الحية في التوراة، والشيطان في القرآن، يلاحظ تشابه العناصر الرئيسية المحركة لقصة الخطيئة هذه. فسبب الخطيئة هو القرب من الشجرة المحرمة عليهما. أما العقوبة فهي مختلفة في أجزائها، ولا تشابه فيهما إلا الخروج من الجنة والنزول إلى الأرض.

وتجدر الإشارة إلى أغلب ما ذكر في طريقة الخديعة هو أقرب للخرافات والأساطير التي وجدت مكاناً فسيحاً في كتب التفسير والتاريخ الإسلامي وهي من زعم القصاص وأهل الكتاب، ولهم فيها مزاعم كثيرة وعجائب غريبة. (جاسم والسويطي، ٢٠١٥، ص٢٠٩١).

ومما ورد من هذه القصص ما ذكره الطبري "أن إبليس لما أراد إغواء آدم وحواء وهما في الجنة وهو مطرود منها، حاول الوصول إليهما فمنعه الخنزرة، فعرض نفسه على كل دابة من دواب الأرض لتحمله حتى يدخل الجنة فأبى حتى أتى الحية التي كانت من أجمل الدواب ولها أربع قوائم فوافقت على إدخاله، فجعلته بين نابيين من أنيابها ثم دخلت به فاستطاع خداعهما بجعلهما يأكلان من الشجرة التي منعا من الاقتراب منها، فكان ذلك سبباً في إخراجهما جميعاً من الجنة، وأما الحية فقد لعنها الله وجعلها تمشي على بطنها وأحل قتلها حيث وجدت. (١٩٩٦، ج١/ص٧١-٧٢).

فلسفة الخطيئة والعقاب الإلهي في الديانات الثلاث

أشارت الكتب السماوية الثلاث إلى العقوبة التي عاقب الله بها آدم وحواء نتيجة تلك الخطيئة على اختلاف فيها بين التفصيل والإيجاز، وقد شملت هذه العقوبة جميع الأطراف المشتركة في الخطيئة، كما أوردتها الكتب السماوية الثلاث، وزادت عليها التوراة بأن جعلت العقوبة تشمل الأرض أيضاً.

فقد ورد في التوراة إن عقوبة آدم كانت، فضلاً عن إخراجها مع حواء من الجنة، هي التعب في حياته والعمل المضني لتحقيق قوته: "مَلْعُونَةٌ الْأَرْضُ بِسَبَبِكَ. بِالتَّعَبِ تَأْكُلُ مِنْهَا كُلُّ أَيَّامِ حَيَاتِكَ. ^{١٨} وَشَوْكًا وَحَسَاكَ تَنْبُتُ لَكَ، وَتَأْكُلُ عُشْبَ الْحَقْلِ. ^{١٩} بَعْرِقِ وَجْهَكَ تَأْكُلُ خُبْزًا حَتَّى تَعُودَ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أُخِذْتَ مِنْهَا. لِأَنَّكَ تَرَابٌ، وَإِلَى تَرَابٍ تَعُودُ". (سفر التكوين: الإصحاح ٣/١٧-١٩).

أما عقوبة حواء فقد كان النص التوراتي أكثر قساوة في تعامله معها بالنظر إلى كونها صاحبة الذنب الأساس في تلك الخطيئة، وهي من حرّضت آدم على المعصية - بحسب التوراة: " وَقَالَ لِلْمَرْأَةِ: «تَكْثِيرًا أَكْثَرَ أَتَعَابِ حَبْلِكَ، بِالْوَجَعِ تَلِدِينَ أَوْلَادًا. وَإِلَى رَجْلِكَ يَكُونُ اسْتِيَاقُكَ وَهُوَ يَسُودُ عَلَيْكَ»". (سفر التكوين: الإصحاح ٣/١٦).

فالعقوبة كانت تكثير أوجاع الحمل والولادة، وزيادة معاناتها أثناء فترة حملها. فضلاً عن إنها كانت مطاعة سائدة فصارت مطيعة وتحت سيادة الرجل وخاضعة له.

في حين كانت عقوبة الحية هي تغيير فيسولوجيتها وتركيبها الجسماني: " فَقَالَ الرَّبُّ الْإِلَهَ لِلْحَيَّةِ: «لَأَنَّكَ فَعَلْتِ هَذَا، مَلْعُونَةٌ أَنْتِ مِنْ جَمِيعِ الْبَهَائِمِ وَمِنْ جَمِيعِ وُحُوشِ الْبَرِّيَّةِ. عَلَى بَطْنِكَ تَسْعِينَ وَتَرَابًا تَأْكُلِينَ كُلُّ أَيَّامِ حَيَاتِكَ. ^{١٥} وَأَضَعُ عِدَاوَةَ بَيْنِكَ وَبَيْنَ الْمَرْأَةِ، وَبَيْنَ نَسْلِكَ وَنَسْلِهَا. هُوَ يَسْحَقُ رَأْسَكَ، وَأَنْتِ تَسْحَقِينَ عَقْبَهُ»". (سفر التكوين: الإصحاح ٣/١٤-١٥). فضلاً عن لعنها لعنة أبدية.

في حين لم يرد أي شيء يذكر بخصوص إبليس، الذي يبدو إن مقامه في هذه النصوص هو ذاته مقام الحية الوارد ذكرها في التوراة كما في تفسير التوراة. (التفسير التطبيقي للتوراة، ٢٠٠٢، ص ١٣)

أما الأرض فعوقبت هي الأخرى باللعن بسبب خطيئة آدم: "مَلْعُونَةٌ الْأَرْضُ بِسَبَبِكَ. بِالتَّعَبِ تَأْكُلُ مِنْهَا كُلُّ أَيَّامِ حَيَاتِكَ". (سفر التكوين: الإصحاح ٣/٢٣). ولا نعلم سبب وجبها لهذا اللعن، وقد حاول القس وليم مارش أن يبرر ذلك بالقول: "كانت الأرض تنبت له أطيب الأثمار وأنفعها فصارت تنبت له أحبها وأضرها. وليس المعنى أنه خلق هذه جديداً، بل جعلها تنبت بلا عناء الفلاحة والزراعة وجعل الجودة محتاجة إلى ذلك بالتعب والألم". (وليم مارش، ٢٠٠٨، ج ١، ص ٤١).

أما في القرآن الكريم، فقد أشار باقتضاب إلى العقوبة المقتضاة بإخراج جميع أطراف الخطيئة (آدم وحواء وابلوس) من الجنة كعقوبة جماعية على ذلك الذنب لاشتراك الأطراف الثلاثة فيها جميعاً، ولم يتبع القرآن الكريم تلك الطريقة التفصيلية التي نحتها التوراة في تنويع العقوبة على كل طرف من الأطراف. فالذنب كان مشتركاً بينهم، والخطيئة واحدة، فالعقوبة بالتالي واحدة على الجميع، وهي الخروج من الجنة. فضلاً عن ذلك إن أسلوب القرآن الكريم هو بالأساس بعيد عن التفاصيل المملة كما هو سياقه المتبع في جميع الآيات. قال تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، (طه: آية ١٢٣) . في حين إن الزيادة في العقوبة كانت على المسبب الرئيس في تلك الخطيئة وهو ابليس اللعين، الذي لعنه الله تعالى وطرده من رحمته، قال تعالى:

﴿قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَأْتِكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾﴾، (ص: آية ٧٧-٧٨).

وتدور فلسفة الخطيئة في التوراة والإنجيل على إن ما ارتكبه آدم من ذنب ومعصية توارثتها الأبناء عن الآباء، وهي المحور الوحيد والأساس الذي دارت حوله أحداث العلاقة بين الله والإنسان. فالتوراة تؤكد على انتشار تأثير هذه الخطيئة، وتوارثها البشر والكل يُولد حاملاً لها. وفكرة الخلاص من هذا العبء الثقيل يتلخص في أن ينفذ البشر كل ما جاء في الشريعة - التوراة - لأنها الطريق إلى رضا الله وعفوه عنهم، ولا بديل لهم مطلقاً عن هذا الطريق. فلم تترك لهم خياراً آخر؛ فإما الموت الأبدي أو الطاعة لما ورد في الشريعة.

ذكرت التوراة: "١٢" مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَانَمَا بِإِنْسَانٍ وَاحِدٍ دَخَلَتِ الْخَطِيئَةُ إِلَى الْعَالَمِ، وَبِالْخَطِيئَةِ الْمَوْتُ، وَهَكَذَا اجْتَاَزَ الْمَوْتُ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ، إِذْ أَخْطَأَ الْجَمِيعُ." (رومية، الإصحاح ١٢/٥). بين إن الموت جاز إلى الجنس البشري قصاصاً على الخطية فهو موت روحي نتيجته موت جسدي. وبذلك زُرِعَ في جسد الإنسان برر الانحلال والفناء وصار وراثاً لجميع الأوجاع والأمراض والويلات التي اعترته واعترت نسله بعده. (وليم مارش، ٢٠٠٨، ج ١، ص ٣٤).

أما في المسيحية، فيؤكد المسيحيون على وراثته البشرية لذنوب الأبوين، فالخطيئة أصبحت كامنة في طبيعتهما فانقلبت بالوراثة إلى سائر الأبناء، فيولد الطفل وهو مذنب، لأن وباء الخطيئة سرى إلى هذا الطفل وراثته.

وهكذا أصبح البشر جميعاً خطاة، والسبب في الرؤية المسيحية هذه، يوضحها أحد باحثيهم (عوض سمعان، ٢٠٠٠، ص ١٩) بالقول: "وبما أن آدم الذي ولد منه البشر جميعاً كان قد فقد بعضيانه حياة الاستقامة التي خلقه الله عليها، وأصبح خاطئاً قبل أن ينجب نسلًا، إذن كان أمراً بدهياً أن يولد أبناؤه جميعاً خطاة بطبيعتهم نظيره، لأننا مهما جلنا بأبصارنا في الكون لا نجد لسنة الله

تبديلاً أو تحويلاً، ولذلك قال الوحي: "إنسان واحد دخلت الخطيئة إلى العالم" (رومية، الإصحاح ١٢/٥-٢١).

وقد حاول فلاسفة المسيحية تبرير هذه العقيدة لما تحويه من ظلم للإنسانية، لتقبلها العقول وتستسيغها النفوس دون اعتراض ولا إحساس بالظلم، فذكر بعضهم: "إن سقوط آدم من النعمة هو سقوط كل إنسان، إذن خطيئة آدم هي خطيئة كل إنسان، فليس المقصود أن الخطيئة تنتقل بالتوارث والتسلسل لأنها ليست تركة أو ميراثاً. إنما المقصود أن آدم الإنسان قد أخطأ، فأخطأ آدم الجميع إذن، كل واحد قد أخطأ، وذلك لأنه إنسان". (ندرة اليازجي، ١٩٩٩، ص ٤٣).

وليس هذا فقط، بل إنهم جعلوا صلب المسيح مسألة طبيعية بناءً على تلك الخطيئة، إمعاناً منهم في جعل هذه الخطيئة تأخذ أبعاداً عقديّة لتجسد فكرة الغفران لديهم، فقالوا إنه لا ظلم في صلب المسيح، إذ أن المسيح بتجسده الإنساني قد أصبح خاطئاً متقصماً شخصية الإنسان المجرم الخاطيء، فاستحق قول التوراة: "النفوس التي تخطئ هي تموت". (ندرة اليازجي، ١٩٩٩، ص ٤٤).

وقد رُوِّج فلاسفة المسيحية إلى فكرة التوبة والغفران من هذه الخطيئة، وهي مشروطة بالإيمان بالمسيح على إنه المخلص للبشرية من الذنب الأزلي الذي ارتبطت به نتيجة لخطيئة آدم الأولى، فهم يؤمنون بأن الله كان قد أعدَّ خطة للتغلب على نتائج خطية الانسان، الذي انفصل عن الله نتيجة هذه الخطية، وهذه الخطة هي عبارة عن الكتاب المقدس نفسه. وفلسفة نزوله للإنسان ما هو إلا قصة الكشف عن هذه الخطة التي أدت أخيراً الى مجيء الله بنفسه إلى الارض في شخص ابنه يسوع - كما ينكرون - فحياة يسوع التي بلا خطية وموته جعلاً من الممكن لله أن يمنح الغفران لكل من يطلبه، فلا يمكن أن نصبح أولاداً لله إلا متى التمسنا الغفران من الرب يسوع المسيح. فلولاً هذه الخطيئة لما عرف الإنسان الشرّ مطلقاً ولما كان هناك حاجةً لقدم الأنبياء والرسالات. (التفسير التطبيقي للتوراة، ٢٠٠٢، ص ١٥).

فضلاً عن ذلك يرى المسيحيون إن فكرة الموت لم تكن فكرة الله، بل كانت من صنع الإنسان نفسه نتيجة وقوعه في الخطيئة، وإن آدم لو لم يقع في المعصية لما كُتِب الموت على البشر. (فرح أبو عطا، ١٩٩١، ص ٧١).

فخطيئة آدم التي سقط بها هو وحواء، قطعت العهد بينه وبين الله ليس من أجل نفسه فقط؛ بل من أجل نسله، وعليه فالجنس البشري جميعه مشارك له في خطيئته، ولأن الله أراد أن يخلص البشرية من هذا الذنب، كان لا بد أن من وجود فادٍ لهم، فكان هذا الفادي المخلص هو (المسيح) الذي هو ابن الله ثم صار إنساناً. (الشنطي، ٢٠٠٢، ص ٤٠).

ويوضح بولس مفهوم الخطيئة، ومفهوم الفداء الإلهي لتلك الخطيئة التي اقترفتها الإنسان، ونتج عنها استحواذ الشيطان على الإنسان واستحقاقه للموت، قائلاً: "مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَانَمَا بِإِنْسَانٍ وَاحِدٍ نَخَلَتْ الْخَطِيئَةُ إِلَى الْعَالَمِ، وَبِالْخَطِيئَةِ الْمَوْتُ، وَهَكَذَا اجْتَاَزَ الْمَوْتُ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ، إِذْ أَخْطَأَ الْجَمِيعُ". (رومية، الإصحاح ٥/١٢).

لذا يمكن القول إن فكرة الخطيئة هي الأساس الأول الذي تقوم عليه العقيدة المسيحية، بعد أن رَوَّج لها فلاسفتهم، وعلى هذا المفهوم قامت العاطفة الدينية لديهم، فأصبح ارتباطهم الوجداني بالمسيح، هو الحل الوحيد للهرب من الجحيم. وذلك بسبب ما قامت عليه هذه العقيدة من سريان تلك الخطيئة في الجنس البشري، فيولد الإنسان وهو يحمل ذنب أبيه آدم، ولنا أن نتخيل ما ستكون عليه مخيلة المسيحي حينما لا يجد مخلصاً من الهلاك إلا باللجوء إلى الارتباط بالمسيح والاعتقاد بأن المخلص له الهلاك. لاسيما وإن إبطال هذا المعتقد يهدم هذه الديانة من الأساس، فلا رابط بين الإنسان المسيحي وبين المسيح سوى هذه العقيدة.

فمنذ أن ذاق الإنسان الشقاء على الأرض، وعى جيداً إن ذلك كان بسبب عصيانه وعدم امتثاله لأوامر الله، وفي يقينه واعتقاده عاش على أمل أن يتخلص من كل عذاباته وشفائه، ومع إيمانه هذا ارتبط بالمسيح أكثر لأنه وسيلة خلاصه الوحيد. (متى المسكين، ١٩٩٣، ص ٢٥٧) .

الخطيئة بين الايديولوجيا الدينية والحقيقة التاريخية

تقوم رواية الخطيئة على مسألة نهى الرب لآدم عن الأكل من الشجرة التي سمّتها التوراة (شجرة معرفة الخير والشر)، وصاحبها تحذير شديد بأنه إذا أكل منها سوف يموت. والسؤال هنا: هل إن معرفة الإنسان بالخير والشر هو خطيئة يُعاقب عليها بالموت ؟
في حين إن ذلك يخالف نصوص التوراة نفسها التي تأمر بتعلم فعل الخير، كما ورد في سفر أشعياء: "تَعَلَّمُوا فَعَلَّ الْخَيْرِ. اظْلُبُوا الْحَقَّ. انصِفُوا الْمَظْلُومَ. اقضُوا لِلْيَتِيمِ. حَامُوا عَنِ الْأَرْمَلَةِ". (أشعياء: الإصحاح ١٧/١).

وكذلك ما ورد في الجامعة: "دُرْتُ أَنَا وَقَلْبِي لِأَعْلَمَ وَلِأَبْحَثَ وَلِأَطْلُبَ حِكْمَةً وَعِفْلاً، وَلِأَعْرِفَ الشَّرَّ أَنَّهُ جِهَالَةٌ، وَالْحَمَاقَةُ أَنَّهَا جُنُونٌ". (الجامعة: الإصحاح ٢٥/٧). "وَأَمَّا الطَّعَامُ الْقَوِيُّ فَلِلْبَالِغِينَ، الَّذِينَ بِسَبَبِ التَّمَرُّنِ قَدْ صَارَتْ لَهُمُ الْحَوَاسُ مُدْرَبَةً عَلَى التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ". (العبرانين: الإصحاح ١٤/٥) . وغيرها من النصوص التي تتعارض مع ذلك النهي.

فضلاً عن ذلك ترد نصوص التوراة لتخبرنا بعدم موت آدم وحواء بعد أكلهم من الشجرة، مما

يجعلنا نتساءل عن مدى صدق الرواية التوراتية ؟

إن الخطيئة التي ارتكبتها آدم بالأكل من شجرة المعرفة دعت - بحسب التوراة - إلى أن يتم لعن آدم بسبب هذه الخطيئة، ويحكم عليه الرب بالتعب والشقاء في تحصيل عيشه حتى يعود إلى التراب الذي أخذ منه: ^{١٩} «بِعَرَقِ وَجْهِكَ تَأْكُلُ خُبْزًا حَتَّى تَعُودَ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أُخِذْتَ مِنْهَا. لِأَنَّكَ تُرَابٌ، وَإِلَى تُرَابٍ تَعُودُ». (التكوين: الإصحاح ٣/١٩). مما يعني إن الرب قد قضى أن يطرده من الجنة بسبب ذلك. لكن التوراة تعود لتذكر سبباً آخر لطرده وهو إنه - الرب - يخاف أن يتجرأ آدم على الأكل من شجرة الحياة أيضاً فيجأ إلى الأبد: ^{٢٠} «وَقَالَ الرَّبُّ الْإِلَهُ: «هُؤُذَا الْإِنْسَانُ قَدْ صَارَ كَوَاحِدٍ مِنَّا عَارِفاً الْخَيْرِ وَالشَّرِّ. وَالآنَ لَعَلَّهُ يَمُدُّ يَدَهُ وَيَأْخُذُ مِنْ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ أَيْضًا وَيَأْكُلُ وَيَحْيَا إِلَى الْأَبَدِ». ^{٢١} فَأَخْرَجَهُ الرَّبُّ الْإِلَهُ مِنْ جَنَّةِ عَدْنٍ لِيَعْمَلَ الْأَرْضَ الَّتِي أُخِذَ مِنْهَا. (التكوين: ٣/٢٢-٢٣).

وفي هذا النص إشارة أخرى تقول إن الإنسان أصبح واحد من الإلهة يعرف الخير والشر، وكأن الله ليس واحداً وإنما له شركاء آخرين، وكانت خشية الرب أن يكون آدم شريكاً جديداً.

وهذا الحوار التوراتي غاية في العجب، ونستطيع أن نجزم إنه ليس نصاً إلهياً بقدر ما هو تحريف متعمد للنصوص التوراتية لكي تتساق مع الفكرة التي تبناها اليهود، ومن بعدهم المسيحيون بخطأ جميع الجنس البشري تبعاً لخطيئة آدم الأولى.

وقد حاول بعض شراح التوراة تفسير تلك النصوص بما جادت به أفكارهم التي تحاول تسويق فكرة الخطيئة الأولى، فحين مروا بالنص الذي يقول إن الإنسان قد صار واحداً منا، قالوا إن ذلك يعني: "انحط الإنسان بالسقوط أدبياً وارتفع عقلياً فعرف أنه مستقل وأخذ يزاوِل الاختيار والعمل بمقتضى الإرادة إلى غير ذلك من أمور المشابهة لله". (وليم مارش، ٢٠٠٢، ص ٤٢). فأكدوا تشابه الإنسان مع الله من حيث الإرادة المستقلة والاختيار، بمعنى إحالة الخطأ إلى إرادة الإنسان واختياره المعصية على الطاعة. لذلك كان لابد من أن يتحمل نتيجة اختياره هذا.

واستدرك الشارح على مسألة طرد آدم من الجنة بما يُفهم بأنه بسبب مزاحمته أما حين يتعلق بسبب طرده من الجنة، فقال وليم مارش: "كان آدم حينئذ قد أخذ يتعرض لأعمال الله ويفسد الصالحات، فلو صار إلى حياة جسدية خالدة لحارب الله وخلع طاعته ووقع هو ونسله في شر الشقاء، ولكنه لا يفتأ يميل إلى الخلود ويطلبه، على أنه كان في جهاد وحزن وتوبة وإيمان وموت، ولهذا لم يكن الفردوس الوطن المناسب له. فإله برحمته أمره بترك الفردوس ليعيش في أحوال مناسبة لمصلحته الأدبية والروحية". (٢٠٠٢، ص ٤٢).

وهذا التفسير من أعجب التفسير التي تبرز طرد آدم من الجنة، لما فيها من تناقضات كثيرة

أولها: إن الطرد كان لمصلحة الإنسان ورحمة له؛ لأنه دائم البحث عن الخلود، والأرض هي المكان المناسب لتحقيق هذه الغاية، والجنة لم تكن مكاناً مناسباً لتلبية طموحات الإنسان وتحقيق كماله الروحي والجسدي، وكأن الشارح قد نسي إن الرب لعن الأرض وعاقب آدم بالتعب والجهد في تحصيل قوته اليومي؟! فكيف تكون الأرض مكاناً أفضل من الجنة؟

وثانيها: يبرز في السؤال الآتي: هل خلق الله آدم وهو لا يعلم كماله الروحية والنفسية، وما هو الأنسب له، وما سيصنع حين وضعه في الجنة؟ فيفتاجي بعد ذلك بخطيئته وبأنه سوف يعاند الرب ويقوم بما قام به؟ ثم يكتشف بأن مكانه الطبيعي لم يكن في الجنة بل في الأرض؟ كما يبرز هنا سؤال مهم للغاية وهو: كيف يعاقب الرب آدم على ذنب ما كان له أن يدرك قبحه؟

فآدم - بحسب ما نفهم من النصوص التوراتية - لم يكن يعرف الخير من الشر، ولم يكن ميالاً للشر بطبعه، على ما نفترضه من أصل الخلق، فالرب خلق آدم على صورته كما تقول التوراة، لذا اقتضت ضروريات الفهم على أن يكون آدم يحمل صفات الرب ومن هذه الصفات إنه خير كله، وليس لديه شر، ومن نصّ التوراة إن آدم عرف الشر بعد أكله من الشجرة، وقبلها لم يكن يعرفه، والخطيئة التي دخلت للإنسان كانت بعد أكله منها.

فضلاً عن إن النص التوراتي مرتبك، لا يعطينا فهماً دقيقاً للموضوع، فمرة تذكر إن الرب يخشى أن يأكل آدم من شجرة الحياة ويحيا إلى الأبد، وفي النص اللاحق تقول إن إخراجهم كان لأجل إعمار الأرض.

وهذا الارتباك هو ما يحاول شرح التوراة أن يبتعدوا عن الخوض في تفاصيله، لأن أغلب تلك النصوص لا يمكن أن تفهم فهماً صحيحاً بسبب تناقضها. لذا عمدوا إلى اضافة مسحة ميثولوجية، وتعميق السطحية الواضحة في النص التوراتي تعميقاً فكرياً تُنتج من خلالها ايديولوجية جديدة يحاولون فيها تسويق فكرة الخطيئة الأولى (خطيئة آدم).

ونكر وليم مارش في تفسيره في إحدى تلك التفسيرات: "كان آدم حينئذ قد أخذ يتعرّض لأعمال الله ويفسد الصالحات فلو صار إلى حياة جسدية خالدة لحارب الله وخلع طاعته ووقع هو ونسله في شر الشقاء ولكنه لا يفتأ يميل إلى الخلود ويطلبه على أنه كان في جهاد وحزن وتوبة وإيمان وموت، ولهذا لم يكن الفردوس الوطن المناسب له. فإله برحمته أمره بترك الفردوس ليعيش في أحوال مناسبة لمصلحته الأدبية والروحية" (٢٠٠٢، ص ٤٢).

أما مسألة الموت التي يجعلها شرح التوراة مسألة ترتبت جزاءً على الخطيئة التي ارتكبتها آدم، فقال مارش: "والمصدر في قوله تموت لا محالة ولم يموت جسدياً في حال أكله من الشجرة،

بل مات موتاً روحياً بانفصاله عن حياة الله، وهذا أدى به إلى الموت الجسدي لأن التعلق بين النفس والجسد وأجرة الخطية موت يستحيل بقاءه مع الانفصال عن الله" (٢٠٠٢، ص ٣٤) .

وهو تبرير بعيد عن النص، فالنص يذكر الموت بعبارة صريحة، وهو تهديد من الرب لآدم حتى لا يأكل من الشجرة، "لأنَّكَ يَوْمَ تَأْكُلُ مِنْهَا مَوْتًا تَمُوتُ"، وهو تأكيد على إن الموت المقصود هو الموت الجسدي، لأن آدم في تلك المرحلة لم يكن مدركاً لتابع ذلك الفعل، والدليل على ذلك اتصاله من الأكل وإلقاء اللوم على حواء بأنها أغرتة، فلو فرضنا جدلاً إدراكه ذلك لكان فعله عصياناً متعمداً لأمر الله، ولم يكن عليه أن يُلقي بتبعية ذلك على غيره، وبأنه تعرض لإغواء حواء، بل نقول إنه كان مدركاً لفعله هذا، فتقع عليه بالتالي تبعية الذنب. لكننا نراه - في النص التوراتي قد ألقى باللائمة على حواء كونه كان غير مدركٍ لفعله هذا، بل وتعرض حواء للإغواء هو دليل على عدم إدراكها معا لهول الخطيئة التي ارتكباها، وبأنهما تعرضا للخداع، فكانت العقوبة بالسقوط إلى الأرض. ولم تكن بالموت الذي توعد به الرب فيها، وهي إشارة إلى الاختلاف الواضح بين التهديد بالموت كعقوبة أولى تهددها به الرب، وبين العقوبة التي عوقب بها آدم بإخراجهم من الجنة وإنزالهم إلى الأرض.

إن فكرة تعميم الذنب على البشرية عموماً هي محاولة منهم لترسيخ مفهوم إن الإنسان يولد مذنباً، وبأن الخلاص مرتبط بارتباط الإنسان بالمسيح وقوة إيمانه، فهي أقرب ما يكون لمحاولة التبشير بالدين المسيحي منها لأن تكون نصوصاً مقدسة قائلتها الكتب المقدسة، لأن القراءة المتأمل في نصوص الإنجيل تكشف بوضوح بطلان هذا الادعاء، فقد وردت نصوص عدة تُقر بأن الذنب لا يورث، ولا ينتقل من الآباء إلى الأبناء، ومن هذه النصوص نذكر: "لَوْ لَمْ أَكُنْ قَدْ جِئْتُ وَكَلَّمْتُهُمْ، لَمْ تَكُنْ لَهُمْ خَطِيئَةٌ، وَأَمَّا الْآنَ فَلَيْسَ لَهُمْ عَذْرٌ فِي خَطِيئَتِهِمْ. ^{٢٢}الَّذِي يُبْعِضُنِي يُبْعِضُ أَبِي أَيْضًا. ^{٢٣}لَوْ لَمْ أَكُنْ قَدْ عَمَلْتُ بَيْنَهُمْ أَعْمَالًا لَمْ يَعْمَلْهَا أَحَدٌ غَيْرِي، لَمْ تَكُنْ لَهُمْ خَطِيئَةٌ، وَأَمَّا الْآنَ فَقَدْ رَأَوْا وَأَبْعَضُونِي أَنَا وَأَبِي". (يوحنا: الإصحاح ١٥/٢٢-٢٤).

فالنص واضح وصريح بأنه لا يتحدث عن خطية سابقة، أي قبل وجود السيد المسيح، وإنما كانت الخطية حين بشر المسيح بنبوته بين بني إسرائيل فكذبوه ولم يؤمنوا به، فمصدر الخطيئة التي يتحدث عنها الإنجيل هنا هي آنية تتعلق بفعل ارتكبه من لم يؤمن بالمسيح.

كما إن قولهم: "بأن الإنسان عندما يولد، يولد خاطئاً بطبيعته لأن الفساد جاء إلينا من أبوين الأولين فكلنا خطاة لأننا كلنا بشر". (أديسون ليتش، د.ت، ص ٦٤). هو قول مردود أيضاً بنص الإنجيل، على لسان السيد المسيح حين منع تلاميذه بعض الأولاد الصغار الذين جاءوا إليه، فقال لهم: «دَعُوا الْأَوْلَادَ يَأْتُونَ إِلَيَّ وَلَا تَمْنَعُوهُمْ، لِأَنَّ لِمِثْلِ هَؤُلَاءِ مَلَكُوتَ اللَّهِ. ^{١٥}الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ:

مَنْ لَا يَقْبَلُ مَلَكُوتَ اللَّهِ مِثْلَ وُلْدٍ فَلَنْ يَدْخُلَهُ». ^{١٠} «فَاخْتَضَتْهُمْ وَوَضَعَ يَدَيْهِ عَلَيْهِمْ وَبَارَكَهُمْ». (مرقس: الإصحاح ١٠/١٤-١٦). وهنا يؤكد المسيح بأن ملكوت الله قد جعل لهؤلاء الصغار، وهذا دلالة على براءة هؤلاء الأطفال من الذنب، وبأن الإنسان يولد خالياً من الذنوب، ولا يحمل وزراً، فلا يمكن أن يكون الملكوت الإلهي للمذنب أو العاصي، وهو ما يتعارض مع مفهومهم السابق بأن البشر يولد وهو حامل لخطيئة آدم أبوه.

ويؤكد نص آخر هذا المفهوم بالقول: ^{١١} «انظروا، لا تختفروا أحد هؤلاء الصغار، لأنني أقول لكم: إن ملائكتهم في السموات كل حين ينظرون وجه أبي الذي في السموات. ^{١٢} لأن ابن الإنسان قد جاء لكي يخلص ما قد هلك. ^{١٣} ماذا تظنون؟ إن كان لإنسان مئة خروف، وضيء واحد منها، أفلا يترك التسعة والتسعين على الجبال ويذهب يطلب الضال؟» (متى: الإصحاح ١٨/١٠-١٣).

فهؤلاء لم يرثوا ذنباً من آباؤهم كما يدعون، بل ولدوا دون خطايا، وإن المسيح إنما جاء لهداية المخطئين من البشر، وقد جاء لهم بمثل يدل على قلتهم، وحتى لو كانوا كثيرين فإن هناك بقية غير مذنبية، مما يؤكد على عدم صحة ما ذهبوا إليه من توريث الذنب للبشرية من أبيهم آدم.

بل إن هناك من أثنت عليهم التوراة وأمتدحتهم، كبعض الأنبياء والصالحين، فلو كانوا حاملين للخطيئة لما كانوا أهلاً لهداية الناس، فإن قيل إن هؤلاء أنبياء وقد عفى الله عنهم، فنقول: إن ما ذكرناه سابقاً من إن التوراة شملت جميع نسل آدم بالخطيئة ولم تستثن أحداً منهم كما هو ظاهر ما ورد فيها، فضلاً عن إن من ذكرتهم التوراة مادحة لهم لم يكونوا أنبياء فقط بل هناك من غير الأنبياء، فلم يعفو عن بعض ويترك آخرين؟

ومن هؤلاء الأبرار الذين لم تكبلهم الخطيئة، نوح الذي وصفته بالبار الكامل: «كَانَ نُوحٌ رَجُلًا بَارًا كَامِلًا فِي أَجْيَالِهِ. وَسَارَ نُوحٌ مَعَ اللَّهِ». (التكوين: الإصحاح ٦/٩).

وأيضاً إبراهيم فقد قيل له: «لَا تَخَفْ يَا أَبْرَاهِمَ. أَنَا تُرْسٌ لَكَ. أَجْرُكَ كَثِيرٌ جَدًّا». (التكوين: الإصحاح ١١/١)، وقالت عنه أيضاً: «وَبَارَكَ الرَّبُّ إِبْرَاهِيمَ فِي كُلِّ شَيْءٍ». (التكوين: الإصحاح ٢٤/١). فكيف يبارك الله شخصاً خاطئاً؟

كما أثنت التوراة على غير الأنبياء أيضاً، مما يدل على عدم حملهم لخطيئة آدم، ومن هؤلاء هابيل بن آدم، الذي تقبل الله منه قربانه لصلاحه، ولم يقبل قربان أخيه قابيل، فلو لم يكن مقبولاً عند الله وبلا خطيئة لم يكن ليتقبل قربانه: «وَحَدَّثَ مِنْ بَعْدِ أَيَّامٍ أَنَّ قَائِيْنَ قَدَّمَ مِنْ أَثْمَارِ الْأَرْضِ قُرْبَانًا لِلرَّبِّ، وَقَدَّمَ هَابِيلُ أَيْضًا مِنْ أَبْكَارِ غَنَمِهِ وَمِنْ سِمَانِيهَا. فَظَنَّ الرَّبُّ إِلَى هَابِيلَ وَقُرْبَانِهِ، وَلَكِنْ إِلَى قَائِيْنَ وَقُرْبَانِهِ لَمْ يَنْظُرْ». (التكوين: الإصحاح ٤/٤).

وكذلك الناجين مع نوح فيفترض إنهم من الأبرار، لأنه ليس من المعقول أن يكونوا مذنبين ويشملون بهذه الرحمة، وإلا لكانوا هلكوا كالأخرين. ولو كانت الخطيئة موروثه لما كان مبرر لهذا التفريق بين المذنبين. (التكوين ١٢/٦-٢٣/٧).

وكذلك ما ورد في سفر الأيام الثاني: "وَأَمَّا بَنُوهُمْ فَلَمْ يَقتُلُهُمْ، بَلْ كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ فِي الشَّرِيعَةِ فِي سَفَرِ مُوسَى حَيْثُ أَمَرَ الرَّبُّ قَائِلًا: «لَا تَمُوتُ الآبَاءُ لِأَجْلِ الْبَنِينَ، وَلَا الْبَنُونَ لِأَجْلِ الآبَاءِ، بَلْ كُلُّ وَاحِدٍ يَمُوتُ لِأَجْلِ خَطِيئَتِهِ»." (الأيام الثاني: الإصحاح ٤/٢٥). وهو دليل واضح على إن الأبناء لا يتحملون ذنب آبائهم، فكل شخص يحاسب بذنبه هو، وما اقترفه من ذنب.

كما إن هناك بعض المفكرين المسيحيين ينكرون سريان الخطيئة الأصلية إلى ذرية آدم، واعتبروه مما يمنع السعادة الأبدية، وقالوا بأن الإنسان موكول بأعماله. ومنهم هؤلاء (كواثيليس شيس) الذي نُقل عنه قوله: "ذنب آدم لم يضر إلا آدم، ولم يكن له أي تأثير على بني النوع البشري، والأطفال الرضعاء حين تضعهم أمهاتهم يكونون كما كان آدم قبل الذنب". (أنظر: مصطفى حلمي، ٢٠٠٤، ص ١٦٦).

كذلك الدكتور (نظمي لوقا) الذي أوضح الآثار السلبية التي تتركها هذه العقيدة على نشأة الإنسان، فقال: "الحق أنه لا يمكن أن يقدر قيمة عقيدة خالية من أعباء الخطيئة الأولى الموروثة إلا من نشأ في ظل تلك الفكرة القاتمة التي تصبغ بصبغة الخجل والتأثم كل أفعال الفرد، فيمضي حياته مضي المريب المتردد، ولا يقبل عليها إقبال الواثق بسبب ما أنقض ظهره من الوزر الموروث". (١٩٥٩، ص ٨٢).

فهذه الفكرة القاسية تترك آثارها السلبية على الحياة كلها، ورفعها عن كاهل الإنسان تحمل معها كل آمال التحرر للنفس من قيودها التي قيدها هذه الفكرة القاسية.

فالمسيحية ترى في خطيئة آدم "إن الإنسان الأول سقط في عثرة العصيان، وبسقوطه هذا أصبح واقعاً تحت حكم الموت الذي أنذره به الله تعالى عندما وضعه في الجنة، كما إنه خسر كماله الأدي الذي خلقه الله عليه، وأصبح خاضعاً لناموس الفساد وسلطان الخطية" (إبراهيم لوقا، ١٩٨٣، ص ١٥٩).

وهذا التبدير المسيحي يجعل أمر الخطيئة البشرية أكثر قبولاً عند المسيحيين بدلاً من الدخول في إشكاليات اضطراب النصوص التوراتية وتضاربها مع بعضها، فالقول بحتمية الموت الجسدي إنما حصل بتأثير الخطيئة ربما يجنبهم الحديث عن هذه التناقضات، وهو ما نلاحظه عند تصفح بعض شروح التوراة التي تحاول إيجاد حلول لمثل هذه التناقض، فتحيل بعض هذه النصوص إلى تفسير

أقرب للميثولوجيا الدينية منها إلى العقيدة الدينية الحقيقية التي أراد الله أن يؤمن بها البشر، ليحققوا الهدف السامي الذي من أجله خلق الله الإنسان وهو إعمار الأرض واستخلافه فيها. ونرى بعض المسيحيين يتساقون مع هذا المفهوم ليجعلوه بمقتضى الرحمة من الله للبشرية، فيقول: "من صفات الله العدل والرحمة، وبمقتضى صفة العدل كان على الله أن يعاقب ذرية آدم بسبب الخطيئة التي ارتكبها أبوه وطُرد من الجنة، واستحق هو وأبنائه البعد عن الله بسببها". (نهى نجار، ١٩٧٣، ص ١٣٥).

أما الإسلام فقد أكد على فكرة معصية آدم لرَبِّه، وإنه خالف الله سبحانه وتعالى حين طلب منه عدم الاقتراب من الشجرة، إلا إنه لم يتطرق نهائياً لفكرة توريث الخطيئة، ولا انتقالها إلى الأبناء. في مقابل ذلك أعطى للبشرية مفتاح الخلاص من كل ذنوبهم، وهي التوبة، حتى إنها وردت مقرونة في معظم الآيات بالرحمة، في إشارة إلى اسمه تعالى (الرحيم)، وأول من خصّه بقبول التوبة منه، هو آدم نفسه، قال تعالى: **{فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ النَّوَّابُ الرَّحِيمُ}** (البقرة: آية ٣٧). والآية صريحة في غفرانه سبحانه لما وقع من آدم بخصوص الخطيئة. ثم إن القرآن عمّم هذه الفكرة على البشرية جمعاء، مانحاً إياهم فرصة في الرجوع عن الذنب الذي يقترفه في حياته الدنيا، قال تعالى: **{وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ}** (الشورى: آية ٢٥). وقال أيضاً: **{فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}** (المائدة: آية ٣٩) .

وهذه الذنوب هي ذنوبه هو وليست ذنوب سابقة، وهي - كما تعبر الآيات القرآنية بوضوح مشروطة بالرجوع عن الذنب أولاً، والتزام طاعة الله سبحانه في أوامره ونواهيه ثانياً، وزادها الله كمالاً بأن جعلها تامة، بمعنى إنها تستغرق الذنوب كلها، فلا تدع ذنباً اقترفه إنسان إلا تناولته، ولا معصية إلا غفرتها. (النووي، ١٩٨٧، ج ١٧، ص ٧١) .

وقد أكد القرآن الكريم على إن ذنوب العباد لا تورث، فلا تنتقل ذنوب الآباء إلى أبنائهم، ولن يتحمل أحد وزر غيره، ولا يعاقب على ذنب لم يقترفه، قال تعالى:

{وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ} (الأنعام: آية ١٦٤)، وفي آية أخرى قوله تعالى: **{مَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ}** (الإسراء: آية ١٥)، كذلك في قوله تعالى: **{كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ}** (المدثر: آية ٣٨).

وعليه يمكن القول إن النظرة التي جاء بها الإسلام هي الأقرب للواقع، والأكثر قبولاً من ناحية الدين، فالله حين خلق الإنسان كان مقدراً له أن يكون الممثل الأول للإنسانية التي يريد الله سبحانه أن

يستخلفه في الأرض ليعمرها، قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً} (البقرة: آية ٣٠) .

فكان لا بدّ في تلك الفترة - فترة خلق آدم - زرع الشعور بالمسؤولية وتعميقه في نفس الإنسان، وذلك عن طريق امتحانه بما يوجّه إليه من تكاليف وأوامر، وهذا ما كان .

فكان أول تكليف له هو أن لا يأكل من شجرة معيّنة؛ ترويضاً له ليتحكّم في نزواته، ولا ينساق مع الحرص المحموم على المزيد من زينة الحياة الدنيا ومتعتها وطيبّياتها ؛ لأنّ هذا الحرص هو الأساس لكلّ ما شهده المسرح بعد ذلك من ألوان استغلال الإنسان للإنسان. إلا إنه وقع في المحذور، وعصى ربّه، وأكل من تلك الشجرة. فهل سقط في الاختبار أم لا ؟

ويجيب السيد الصدر على هذا التساؤل بالقول: "استطاعت المعصية التي ارتكبها آدم بتناوله من الشجرة المحرّمة أن تُحدث هزّةً روحيةً كبيرةً في نفسه، وتفجّر في أعماقه الإحساس بالمسؤولية من خلال مشاعر الندم. وطفق في اللحظة يخصف على جسده من ورق الجنة ليؤاري سوءته ويستغفر الله تعالى لذنبه، وبهذا تكامل وعيه في الوقت الذي كانت قد نضجت لديه خبرات الحياة المتنوّعة وتعلّم الأسماء كلها، فحان الوقت لخروجه من الجنة إلى الأرض التي استخلف عليها ليمارس مسيرته نحو الله من خلال دوره في الخلافة". (١٩٧٩، ص ١٤٤) .

إذاً كانت هذه التجربة ضرورية لوضع آدم على طريق الاستعداد لتحمل مثل هذه المسؤولية التي أُلقيت على عاتقه وهي الخلافة على الأرض. (مغنية، ١٩٨١، ج ١، ص ٧٩).

وبالتالي يمكن القول إن فكرة المعصية والخطيئة في الإسلام هي فكرة كان الهدف منها تهيئة آدم لتحمل كامل مسؤولياته التي وُضعت على عاتقه، وكانت تلك المعصية جزءاً من تربية نفسية وجسدية تساعده على تحمل مختلف العقبات في هذه المهمة الجسيمة؛ فالقرآن الكريم يخبرنا بأن مهمة آدم الأساسية هي خلافة الأرض، لذا فمسألة السقوط في الخطيئة هي مسألة مقدرة على آدم، حتى وإن كان ذلك عملاً ارتكبه بنفسه، ولم يكن مجبراً على القيام به، فالله سبحانه جعل الحوادث مرتبطة بأسبابها الطبيعية، فضلاً عن كون ذلك - كما أسلفنا - هو عملية اختبار لآدم وتربية في ذا الوقت.

وقد ذكر بعض المفسرين المسلمين ما يؤكد ذلك بقوله: "إن في قوله تعالى: (اسْكُنْ) تنبيه على الخروج، لأن السكنى لا تكون ملكاً، ولهذا قال بعض العارفين: السكنى تكون إلى مدة ثم تنقطع، فدخولهما في الجنة كان دخول سكنى لا دخول إقامة" (القرطبي، ١٩٨٩، ج ١، ص ٢٩٩).

وهذا أقرب للتأمل لو نظرنا لتلك الخطيئة بنظرة واقعية تاريخية، أريد بها هدف سام، وحدث

جليل وليست ميثولوجيا تقوم على أساس ديني مرتبط بفكرة السقوط الأولى للإنسان، والخطيئة التي ظلت تلازمه منذ الأزل وحتى يرث الله الأرض ومن عليها .

الخاتمة وأهم الاستنتاجات

توصل البحث إلى النتائج الآتية:

- ١- تعد فكرة الخطيئة الأولى - خطيئة آدم - وفكرة الخلاص منها من أهم المسائل التي شغلت أذهان العلماء اللاهوتيين لاسيما في الديانتين اليهودية والمسيحية، التي رُوِّجت لها كثيراً حتى أصبحت من ضمن ايديولوجياتها العقائدية .
- ٢- تباينت الديانات الثلاث في مسألة تبنيها لفكرة الخطيئة والخلاص، فقد اتفقت الديانات الثلاث على فكرة الخطيئة الأولى لآدم، إلا إنها تباينت في مسألة ثبوتها في البشرية وتوارثها عبر الأجيال، فقد رفضت الديانتين اليهودية والإسلامية هذه الفكرة، فيما تجسدت ضمن أدبيات اعتقاد الديانة المسيحية حتى أصبحت جزءاً من الديانة نفسها.
- ٣- وردت الخطيئة الأولى في الكتب السماوية الثلاث (التوراة والإنجيل والقرآن الكريم)، لكنها تباينت بشدة بين كتاب وآخر، ففي التوراة وردت القصة باضطراب وتناقض كبيرين، في حين كانت واقعيته في القرآن كبيرة. وهذا راجع إلى طبيعة الكتب السماوية نفسها، إذ إن التوراة والإنجيل شابهما التحريف بشدة حتى غدت النصوص المنقولة مضطربة بشدة وتحمل بين طياتها اساءات كثيرة لله عز وجل ولللأنبياء، واضطربت حتى النصوص التشريعية الواردة فيهما. فيما حفظ الله سبحانه القرآن الكريم كما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، لذلك كانت نصوصه واقعية وحقيقية .
- ٤- تشرّبت فكرة الخلاص في الفكر المسيحي حتى رُبّطت بالإيمان نفسه، إذ إن اللاهوتيين المسيحيين قدموا فكرة الاله المخلص للبشرية من الذنوب التي لحقت بهم نتيجة خطيئة آدم، فأمنوا بأن الله قدم لهم ابنه يسوع قرباناً لتخليصهم من الخطيئة. ولا نجد هذا المفهوم في الديانتين اليهودية والإسلامية .
- ٥- قامت فكرة الخلاص عند المسلمين بحسب ما جاء به القرآن الكريم على إن العبد يولد دون ذنب، وإن ذنوبه يكتسبها من خلال أفعاله إن كانت بعيدة عن طاعة الله، لكن الله برحمته بعبادة جعل فكرة الخلاص عبارة عن توبة العبد المخطئ والرجوع عن ذنبه توبة خالصة لله، ويكون ذلك خلاصه منه.

المصادر والمراجع

- الكتاب المقدس
- القرآن الكريم
- ابراهيم الأنبا بشوري، قاموس الآيات لتنبه العظات، مكتبة المحبة، د.ط، (القاهرة، ١٩٩٧م) .
- ابراهيم لوقا، المسيحية في الإسلام، مطبعة النيل المسيحية، ط١، (القاهرة، ٢٠٠٣م) .
- أحمد علي عجيبة، الخلاص المسيحي ونظرة الإسلام إليه، دار الآفاق العربية، ط١، (القاهرة ٢٠٠٦م) .
- التفسير التطبيقي للتوراة، شركة ماستر ميديا، (القاهرة، ٢٠٠٢) .
- جاسم والسويطي، عطا سلمان ومحمد حسين، صورة الشيطان في الفكر الإسلامي، بحث منشور في مجلة كلية التربية، (جامعة واسط، ٢٠١٣) .
- الجرجاني، علي بن محمد بن علي (ت ٨١٦هـ/٤١٣م)، التعريفات، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، ط١، (بيروت، د.ت) .
- جميل صليبا، القاموس الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والانكليزية واللاتينية، دار الكتاب العربي، د. ط، (بيروت، ١٩٨٢م) .
- الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد (ت ٥٠٢هـ/١٠٨م)، المفردات في غريب القرآن، المكتبة التوفيقية، د.ط، (القاهرة، د.ت).
- الشنطي، عماد الدين عبد الله طه، خطبة آدم في التوراة والإنجيل والقرآن - دراسة مقارنة، مجلة الجامعة الإسلامية للدراسات الإسلامية، المجلد العشرون ، العدد الأول، يناير ٢٠١٢.
- الصدر، محمد باقر الصدر، الإسلام يقود الحياة، مركز الأبحاث والدراسات التخصصية للشهيد الصدر، ط٥، (قم، ١٤٣٦هـ).
- الطبري، محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ)، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق ومراجعة: نخبة من العلماء، ط٤، مؤسسة الأعلمي للطبوعات، (بيروت ١٩٨٣) .
- عوض سمعان، غفران الذنوب، فلسفة الغفران عند المسيحية، دار الأخوة للنشر، ط١، (القاهرة، ٢٠٠٠م) .
- عوض سمعان، كفارة المسيح، دار الطباعة القومية، د.ط، (القاهرة، د.ت) .
- فرج أبو عطا، اليوم الآخر بين اليهودية والمسيحية والإسلام، دار الوفاء، ط١، (المنصور، مصر، ١٩٩١م).
- متى المسكين، رسالة الى العبرانيين (شرح ودراسة)، مطبعة القديس أنبا مقار، ط١، ١٩٩٣.
- مغنية، محمد جواد، التفسير الكاشف، دار العلم للملايين، ط٣، (بيروت ١٩٨١) .
- نذرة اليازجي، رد على اليهودية واليهودية المسيحية، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط٢، (دمشق، ١٩٨٣) .
- ابن منظور، محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ / ١٣١١م)، لسان العرب، دار صاندر، ط١، (بيروت، د.ت).
- نهى نجار، الديانة المسيحية، دار الفكر اللبناني، ط١، (بيروت، ١٩٩٠م).
- النووي، محي الدين أبو زكريا بن شرف (ت ٦٧٦هـ / ١٢٧٧م)، شرح صحيح مسلم، دار الكتاب العربي، (بيروت



العدد الحادي والأربعون
الجزء الأول/تشرين الثاني/ ٢٠٢٠

جامعة واسط
مجلة كلية التربية

.(١٩٨٧

- وليم مارش، الستن القويم في تفسير أسفار العهد القديم، صدر عن مجمع الكنائس في الشرق الأدنى، (بيروت،
. (١٩٧٣